الفصل الرابع

صعود الشمس فى السماء

(ليس لأحد أبداً أن يقول فى شىء حل ولا حرم إلا من جهة العلم . وجهة العلم الخبر من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس) .

(والاجتهاد القياس) الشافعى

كانت حروب الجزيرة العربية صدى الصوت المهيب الذى أيقظ المسلمين ووحد جزيرة العرب . وكانت بطولات الدرعية بُشريات بانتشار ضوء النهار ، ولما لم يُلق العرب السلاح كان انتصار دعوتهم مسألة زمن . وطريق التاريخ طويلة ليست الأحداث أو الأشخاص فيها إلا علامات طريق :

لقد انتصر الأتراك مراراً على المسلمين ، لكنهم كانوا ينهزمون أمام الإسلام فيسلمون . وعندما ينتصر الإسلام ينتصر العرب كمثل ما ينتصر العرب كلما انتصر الإسلام .

والإسلام يخدمه أهله إذا عملوا به ، وكثيراً ما يخدمه أعداؤه إذا فهموا مبادئه .

لقد انسحب «نابليون» من مصر وخلف على جيشه «كليبر» . فلما قتل «كليبر» تولى قيادة الجيش الفرنسى بعده (مينو) . وهدى الله (مينو) للإسلام فأسلم .

وانهزم نابليون عن مصر ، فراح يطير فى آفاق أوربة من نصر إلى نصر ، ويهز عروشها وهى متفرقة ، حتى إذا قهرته وهى مجتمعة — بدأت مبادئ الثورة الفرنسية فى الانتشار بعد إذ انهزمت جيوشها . أن كانت تحمل مع عتادها الحربى مبادئ ينادى بها الإسلام هى الحرية والإخاء والمساواة وحق تقرير المصير . ثم تتابعت ثورات التحرير فى أوربة . وكانت تركيا أول الخاسرين ، فاستقلت اليونان عنها ، وتتابع انفصال الدول منها مملكة مملكة فى أوربة .

وكان شروق الدعوة الوهابية من جزيرة العرب خسراناً مبيناً للأتراك قبل قيام الثورة الفرنسية . وفيما بعدها ، فهى قد شرقت وغربت كهيئة انتشار الإسلام من جزيرة العرب ، وكانت شرارتها تشعل الضوء والدفء ، وتحدث القوة المحركة فى بلدان تدين بالولاء لتركيا فانتهى أمرها بالاستقلال عنها . وصاحب انتشار الدعوة ظهورُ أثر المطبعة وتعليم الناس ، فتتابع على مبادئ الدعوة رجال لا يكتفون بمجالس العلم ، بل يعملون ، ويجاهدون فى شتى الميادين ، فكرية ، أو سياسية ، أو

عسكرية . وتعمل الانتصارات والهزائم فى خدمتهم ، لنشر المبادئ التى نادى بها محمد ابن عبد الوهاب .

والذين يعلمون ولا يعملون يبخعون أنفسهم (١) .

* * *

١ – لقد علمت تجارب الدعوة المسلمين على مدار قرون ثلاثة أن الوسيلة القاصدة للإصلاح هى البدء بتطبيق الشريعة وتنقية عقائد المنحرفين ، لإقامة الجماعة الصالحة التى تنبت الرجال الصلحاء ، وإن احتاجت إلى سنوات . وما السنوات فى عمر الإسلام إلا سويعات .

ودرس الدعوة قائم كذلك للعالم . فالشرق والغرب الآن يرجعان البصر يمنة ويسرة يبحثان عن مخرج من شراكٍ أوقعتهما فيها عبادة المادة والإحساس الذى يستبد بضمائر الناس كلما حققوا نصراً علمياً أو اقتصادياً ، لا يقابله نصر على أنفسهم ، إذ يتجلى لهم أنهم يظفرون بفراغ لا يملؤه إلا القيم الدينية التى تهب معنى للحياة . فالطريق مفتوحة أمام رجال الدعوة الإسلامية إلى القلوب فى الشرق والغرب . يقول جورج سارطون ما يردده الآن كثيرون :

(لقد سبق للعرب أن قادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم طوال ألفى سنة قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى مدة أربعة قرون ، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم فى المستقبل القريب أو البعيد !) .

٢ – أما المنح السياسى المحض للإصلاح فقد سار عليه الأتراك فى القرن التاسع عشر ، وانتهى بهم فى القرن العشرين إلى دولة علمانية حرص دستورها على رفع الدين من نصوصه ، ثم اطرحت مجلة الأحكام العدلية المستقاة من الفقه الحنفى واستوردت قوانينها من تشريعات سويسرية فصنعت فى نفسها ما حاول أن يصنعه نابليون . إذ كان بمصر ، فعرض فى أول جلسة للديوان استبعاد الشريعة لاستيراد قوانين فرنسية فيما بعد فرفض علماء الأزهر .

وكهيئة نابليون اختط محمد على للإصلاح خطة استيراد « عقلية أوربية » وانتهت خطته بحفدته إلى استيراد التشريعات الأوربية بدلاً من الشريعة ! .

فلما احتلت الجيوش البريطانية مصر فى سنة ١٨٨٢ كان من انتصارات البريطانيين على المصريين

---

(١) عاصر ولى الله الدهلوى فى الهند (١١١٤ – ١١٧٦) محمد بن عبد الوهاب من مطلع حياته وكان علما بشار إليه بالبنان فى مذهب أبى حنيفة ، يستنكر الكثير من الانحرافات التى تحاربها الدعوة ومع ذلك لم يتأثر به المجتمع الإسلامى إلا كهيئة تأثير الفقهاء فى الدارسين عليهم . لأنه اكتفى بالعلم دون العمل ولم يجاهد فى سبيل فكره فى حين أحدث السيد أحمد (١٧٨٢ – ١٨٣١) – إصلاحا كبيرا فى الهند بجهاده . ولم يكن حظه من العلم حظ الدهلوى .

خاصة والمسلمين عامة - أن قرر مجلس وزراء الاحتلال العدول عن قرار مجلس الوزراء فى سنة ١٨٨١ بتقنين الشريعة الإسلامية ، وأقر الإنجليز استيراد قوانين أوربية لتطبيقها على المصريين فلم تقدر القوانين على أن تجعل المصريين أوربيين ، ولم يقدر المصريون مع وجود هذا القانون أن يطبقوا الشريعة إلا فيما يتعلق بالعبادات والأحوال الشخصية .

٣ - وأما المنهج التعليمى فنهج تجريبى يستعمل الزمن إذ لا تسعفه القدرة ، ويفت فى عضده خذلان السلطة له ، مع تعويله عليها . وقد سلكه كثيرون فى القرن الثالث عشر الهجرى - التاسع عشر الميلاد - أظهرهم عالمان مصريان من أشهر علماء الأزهر أولهما رفاعة الطهطاوى (١٧٩١ - ١٨٧٢) وقد أبعده السلطان إلى السودان . فلما رجع انكب على التأليف والترجمة والتعليم وسار محمد عبده أشواطاً بعيدة على المنهج ذاته . وقد نفته من الوطن محكمة عسكرية . فلما عاد سار على دربه وأيده الشعب فيه .

والمنهج أكثر اقتراناً بمحمد عبده لأنه « جاهد » الإنجليز والأتراك والخديويين والعلماء المعممين ، وتوجّه طول حياته وجهة إصلاح الأزهر . وفى الإصلاح الدينى إصلاح الجماعة .

فالمنهج التعليمى يمشى بساقين هما القيم الدينية وتأييد السياسيين أصحاب السلطة . ومن ثمة عثرات أصحابه كلما أصاب الوهن ساق السياسة .

* * *

من أجل ذلك كثر خلاف دعاة الإصلاح مع الساسة ، واختط كل من تلاميذ محمد بن عبد الوهاب للإصلاح خطة تنجحه : فكان المهدى فى السودان أقدر على الإصلاح ؛ لأنه « حارب » وانتصر وقاد المجتمع . وعاش السنوسى بدعوته بعيداً عن مجال السلطة فى زوايا أقامها بالجبل أو فى الصحراء التى تعيش فيها القبائل . واقتصر الشوكانى وهو فى سدة الحكم على القضاء والتأليف فى محاربة البدع . وسار الألوسى بالعراق والكواكبى فى الشام على الدرب . أما السيد أحمد فى الهند فقد استعمل فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وتلمذة هؤلاء لابن عبد الوهاب لا يستبعدها عدم اللقاء أو انصرام الزمان ؛ فلقد تصارمت الأجيال بين العُمَرين . وعمر بن عبد العزيز نخبة المدرسة التى تعلقت بأسباب عمر بن الخطاب وإن لم يلقه .

الشوكانى : محمد بن على الشوكانى (١١٧٣ - ١٢٥٢ هـ) أفتى فى العشرين من عمره وولى القضاء بصنعاء باليمن حيث الأئمة - الحكام - شيعة . والشعب قسمان فسكان المرتفعات شيعة وسكان تهامة شافعية .

وانضافت إليه الوزارة بعد سنوات . فتمرس بمسئولية الحكم . وخلع ربقة التقليد ، فلم يحصر

نفسه فى دائرة المذهب الزيدى ، بل بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق .

وقد ترجم حياة آل تيمية فى خطبة كتابه (نيل الأوطار فى شرح «منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار» لابن تيمية «مجد الدين» .

بهذا يلتقى هو وابن عبد الوهاب فى منبعها العلمى وفى سلفية آل تيمية . ولما مات ابن عبد الوهاب رثاه الشوكانى أكثر من مرثية .

يقول فى نيل الأوطار كلاماً قاله من قبل ابن تيمية «تقى الدين» وابن القيم وابن عبد الوهاب (وكم سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الإسلام . منها اعتقاد الجهلة كاعتقاد الكفار للأصنام ، وأعظم من ذلك ظنهم أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر ، فجعلوها مقصداً يطلب لقضاء الحوائج ، وملجئاً لنجح المطالب ، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم . وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا ، وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً كانت الجاهلية تفعله إلا فعلوه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حمية للدين الحنيف لا عالماً ولا متعلماً ولا وزيراً ولا ملكاً .

وقد توارد علينا من الأخبار ما لا يشك فيه أن كثيراً من هؤلاء «القبوريين» أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولى الفلانى تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق . وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال : إنه تعالى ثانى اثنين أو ثالث ثلاثة ! فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين ، أى رزء للإسلام أشد من الكفر وأى بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ؟ وأى مصيبة يصاب بها المسلمون مثل هذه المصيبة ؟ وأى كفر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك المبين) ؟

وأكثر الشوكانى من التأليف فى أسباب تأخر المسلمين وبدّع الصوفية الفلاسفة . ومن تأليفه

---

(١) يقول فى بعض مراثيه عن محمد بن عبد الوهاب :

لقد مات فوق العلم قطب رحى العلا ... ومركز أدوار الفحول الأفاضل
أقل يامعيب الشيخ مذا تعيبه ... لقد عبت حقا وارتغمت بباطل
أفيقوا أفيقوا إنه ليس داعيا ... إلى دين آباء له وقبائل
دعا لكتاب الله والسنة التى ... أتانا بها طه النبى خير قائل

ويقول فى آل سعود :

هم الناس أهل للفضل يعرف فضلهم ... جميع بنى الدنيا فما للمجادل
لقد جاهدوا فى الله حق جهاده ... إلى أن أقاموا بالظبى كل مائل

كتاب (قطر الولىّ على حديث الولى) ، وفيه ينفى معرفة أى ولى للغيب ، ويقرر مذهب ابن تيمية فى أن أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، وأن الولاية لله ومن الله ، ينالها من يعمل عملاً صالحاً فى الفروض والنوافل .

وكمثله يوجب الاجتهاد ويندد بالتقليد يقول .

(والذى أدين به أنه لارخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشىء من علم النحو والصرف وشطر من مهمات كليات أصول الفقه فى ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة . ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأى سواء كان قائله واحداً أو جماعة الجمهور) .

وفى كتابه (الدواء العاجل لدفع العدو الصائل) نبه على «أن الفتنة لا تنزل بالأمة ويتغلب عليها العدو إلا لما ترتكبه من المعاصى عقوبة من الله لها مثل عقوبة الخوارج ثم القرامطة والباطنية ثم الترك ، وكما يقع كثير من تسليط الفرنج وغيرهم» .

وانتشر علم الشوكانى فى الهند – وباكستان الحالية وفى سائر ديار المسلمين ومصر خاصة ومن كبار تلاميذه محمد صديق خان (١٢٤٨ – ١٣٠٧) أمير مملكة بهوبال .

السيد أحمد : حج السيد أحمد (١٧٨٢ – ١٨٣١) من الهند فى سنة ١٨٢٢ ، والسعوديون منهزمون من بضع سنين لكن أنباءهم تذيع أسباب الدعوة للمذهب ، ثم عاد إلى البنجاب ينشرها فى رقعة كبيرة فى شمال القارة الهندية حتى البنجاب .

وكثر أتباعه واستعملوا القوة لمقاومة البدع ، وخشيت بأسهم الحكومة الإنجليزية واعترضت طريق الإصلاح التى سلكوها .

وظهر أثر السيد أحمد بالإصلاح التعليمى والاجتماعى بين أسباب النهضة التى نهضتها الهند وباكستان فى القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد .

السيد محمد بن على السنوسى : (١٢٠٤ ١٢٧٦ = ١٧٨٧ – ١٨٥٩) من ذرية المثنى ابن الحسن بن على .

قضى بواكير حياته فى خواتيم الملحمة التى صنعتها دعوة ابن عبد الوهاب ، وتنقل بين صحراء مستغانم بالجزائر ، وبين جزيرة العرب ذهاباً وجيئة .

طلب العلم فى فاس بالمغرب ، ورحل إلى مكة فتلقى العلم على علمائها ، وبنى زاوية للتعليم فى جبل أبى قبيس بمكة ، ثم قفل راجعاً إلى الجبل الأخضر فى ليبيا سنة ١٢٥٥ ، فأكثر من بناء الزوايا هنالك ، ثم رجع سنة ١٢٦٣ إلى مكة يقيم فى الزاوية ، ويحدث الحديث ويفقه الطلاب ثم قصد إلى مصر سنة ١٨٤٠ ليبقى بها عامين ، فألقى دروساً بالأزهر ، وأصبحت القاهرة بعد ذلك ملجأ

لبنيه كلما أحدق بهم خطر ، بعد إذ صار إليهم ملك ليبيا .

ومن القاهرة بعث إلى واحة جغبوب بالصحراء فى وسط أفريقية ، فبنوا له زاوية انتقل إليها سنة ١٢٧٣ لنشر طريقته إلى أن توفى سنة ١٢٧٦ .

وفى سنة ١٣١٣ انتقل مركز الدعوة من جغبوب إلى واحة الكفرة .

والسنوسيون يركزون على التعليم وتحفيظ الكتاب الكريم وتضييف ابن السبيل ، ليعلموه العقيدة الصحيحة ، وشراء العبيد وتحريرهم ، وإنكار التضرع للأولياء وزيارة القبور للتوسل ، وشرب القهوة والتدخين ، ويحضون على السعى للرزق ، فالسنوسية منهاج حياةٍ حجر الأساس فيها هو التعليم ونشر الإسلام على أساس التوحيد الخالص .

محمد بن أحمد « المهدى » ولد سنة ١٨٤٣ ومات سنة ١٨٨٥ . من أسرة قيل : إنها من الأشراف الحسينية أصلها فى مصر بمحافظة أسوان . حفظ القرآن ودرس التفسير وصار عضواً فى الطريقة السمانية التى قامت فى السودان فى أوائل القرن . وانتقل إلى (جزيرة أبا) ، فأقام خمسة عشر عاماً يهدى الناس إلى الدين الصحيح ، ويمنع الأذكار وينهى عن التبرج والإقبال على الملذات ويأمر الناس بالزهد .

وفى سنة ١٨٨١ أعلن أتباعه أنه المهدى المنتظر ، مع إلحاح الرجل فى الإفصاح عن أن مهمة حياته هى إحياء السنة وتعليم العقيدة الصحيحة .

ولما نجحت دعوته أعلن أنصاره الثورة على الحكومة ، وكانت مصر والسودان دولة واحدة ، فحاربت جيوش الحكومة – وكان يقودها إنجليز يضمرون لها الشر بعد احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ – واستولى على الخرطوم سنة ١٨٨٥ . وأعلن أنه يريد أن يأسر القائد الإنجليزى فى الخرطوم حيًّا ليفك به أسر القائد المصرى أحمد عرابى الذى نفاه الإنجليز إلى إحدى جزرهم بعد هزيمة الجيش المصرى سنة ١٨٨٢ فى معركته مع الإنجليز .

انتصر المهدى فأقام دولة بالسودان ، وأصدر التشريعات لمقاومة البدع والعادات التى لا تقرها الشريعة . وأقام الحدود . ومد حد القذف فعاقب بنفس العقوبة على كل لفظ شوه وجه الأدب . وطبق حد الخمر وجلد على التدخين ثمانين جلدة مع حبس أسبوع . وعزر على الرقص والقمار . وقلل المهور فللبكر عشرة ريالات وللثيب خمسة . وأباح طلاق زوجة الغائب بعد سبعة أشهر إذا لم يترك لها ما تنفقه إلا أن يكون فى جهاد .

واختار مذهب أبى حنيفة فى فقه المعاملات .

ويضع المهدى وثورته فى مكانها الصحيح فى التاريخ تصريح من الشيخ محمد عبده حينما

قصد إلى لندن بعد نفيه من مصر فقال للحكام الإنجليز : (لاخطر من حركة المهدى . إنما الخطر على مصر من وجود الإنجليز فيها ، فإذا غادر الإنجليز مصر فالمهدى لن يرغب فى الهجوم عليها ، وهو الآن محبوب من الشعب المصرى ، لأنهم يرونه المخلص لهم من الاعتداء الأوربى ، وينضمون إليه عند حضوره) .

محمود شكرى الألوسى : (١٢٧٣ : ١٣٤٤) الألوسيون أشراف فى العراق . أشهرهم أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسى صاحب التفسير الشهير (روح المعانى) ١٢١٧ - ١٢٧٠ . وكان مفتيا حنفيًا للعراق ومن أبنائه عبد الله (١٢٤٨ - ١٢٩١) جلس للقضاء على مذهب أبى حنيفة بعد إذ كان شافعياً . ومن أولاد عبد الله محمود شكرى الألوسى المعروف بجمال الدين أبى المعالى الألوسى .

تعلم محمود شكرى الألوسى فى حداثته على أبيه ، فلما مات كفله عمه السيد نعمان خير الدين الألوسى (١٢٥٢ - ١٣١٧) مؤلف كتاب (جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين) : أحمد بن حجر وأحمد بن تيمية . ومن تأليفه كذلك مختصر ترجمة ابن الجوزى لأحمد بن حنبل .

وكان يستنسخ مريديه وتلاميذه كتب ابن تيمية ليتدارسوا مبادئه ، ويؤلف الكتب فى ذم الذين يستغيثون بغير الله والمعطلين والمشبهين من المتصوفة والقادحين فى فقه ابن تيمية .

كما ألف كتاباً أسماه (فصل الخطاب فى شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب) وكتاباً أسماه (القول الأنفع فى الردع عن زيارة المدفع) . وكان مدفعاً من بقايا عتاد حربى ، نصبه الأتراك فى بغداد سنة ١٠٤٧ فأصبح وثناً يحج إليه العامة ويقدمون النذور له !

وفى مؤلفه (تاريخ نجد) شرح العقيدة السلفية وشمائل الناس ومعايشهم ، فتحدث عن أمراء

---

(١) صار محمود شكرى نقيب المشرفين فى حدى مدارس بغداد . وتقلد عدة مناصب أخرى . وتوفى فى استانبول وله تصانيف كثيرة (مع الأدب فى أحوال العرب) سنة ١٨٨٣ . ثم نقلت الأتراك من بغداد إلى . ثم أطلقوا سراحه فزار بلاده فى قمة .

لما دخلت الجيوش البريطانية على العراق بعد حربه العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) استعانت تركيا بأمير نجد (عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود) واستعانت بواحد من شيعته هو محمود شكرى الألوسى بغدادى . وتولى الأمر له معاذيره ، وقضى لأسبوعه فى مغامرات دون مقتضى من الحرب .

وفى سنة ١٣٣٥ سقطت بغداد فى يدى الإنجليز فعرضوا على محمود قضاء بغداد فتحرج لأنه فتيحة الإسلام هم يحتل ، فقد كان يستصعب قول أبى مرثد الغنوى : (يا سيدتى لا تجعلى أبوات الصالحين قالت لأنصب من ذبحهم شيئاً إلا صنعاً من ذبح أفضل منه) .

آل سعود وجهادهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأرخ لعلماء نجد ، وخص منهم محمد بن عبد الوهاب [١] .

محمد عبده : - (١٢٦٦ - ١٣٢٣ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥) .

تلمذ محمد عبده لجمال الدين الأفغانى ، وكتب فى الصحف وألف رسالة الواردات ثم حاشية على شرح الدوانى ثم تخرج من الأزهر سنة ١٨٧٧ ، فعين مدرساً به ، فمدرساً بدار العلوم . فمحرراً بالوقائع الرسمية سنة ١٨٨٠ ، ثم اشترك فى الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ وحوكم ونفى فى العام ذاته .

وأنشأ فى منفاه مع جمال الدين جريدة العروة الوثقى فى باريس لإيقاظ أهل الإسلام وعاد إلى مصر فعين قاضياً سنة ١٨٨٩ . فمستشاراً بالاستئناف فعضواً بمجلس الأزهر سنة ١٨٩٥ ، فمفتياً للمسلمين سنة ١٨٩٩ ، فرئيساً للجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٩٠٠ ، فتتابع على رياستها بعده سلطان مصر حسين كامل ، والأمير يوسف كمال . فعدلى يكن فمحمد محمود من رؤساء الوزارة فشيخا الأزهر المراغى ومصطفى عبد الرازق .

وفى سنة ١٩٠٥ استقال من مجلس إدارة الأزهر احتجاجاً على الخديو وبعد أشهر وافته منيته ، فلم يشغل أحد مكانه فى أمة الإسلام حتى هذه الساعة . وهو أكبر علماء الأزهر أثراً فى الأمة الإسلامية فى عصرنا الحاضر ، والكلام عنه كلام عن واقعنا ، ولا تزال كلماته فى العروة الوثقى برامج إصلاح لعالمنا المعاصر . وكلامه فى البدع كلام السلفيين والمتكلمين ، وطريقته فى الإصلاح طريقة « الأصوليين » و « العمليين » جميعاً .

يقول إثر عودته من منفاه عن أصول منهجه للإصلاح : (إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار . وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة وأن نذهب إلى مكان بعيد عن

---

(١) قال عنه المستشرق ماسينون وهو يرثيه : (كتب ليجيب للمسلمين المذهب الحنبلى على الطريقة الحديثة الوهابية ، وقد نشر كل هذا باسم مستعار) ولا شك خفيت بعض الكتب على ماسينون فالألوسى قد كتب كتاب (فصل الخطاب فى شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب) وقال فى تقديمه (الإمام محيى السنة ، ومجدد الشريعة النبوية أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب النجدى الحنبلى تغمده الله برحمته . . .)

فلم يكن الألوسى ليخفى أو يخاف أو يكتب باسم مستعار .

وأجمل الأب أنستاس الكرملى حياة محمود شكرى الألوسى وشخصيته فى الكلمات التالية عندما رثاه : (كانت كتاباته غارة شعواء على الخرافات المتأصلة فى قلوب الجهلة والتقاليد الموهومة التى لا نصيب لها من الدين . . . وكان قد وصل إلى حالة قاسية من الحاجة إلى المال فى عهد الاحتلال البريطانى ، لأن الأتراك أفقروا البلاد ، فلما عرف ذلك المعتمد السامى (البريطانى) برسى كوكس أهدى له ثلثمائة دينار ذهبا إنجليزيا وكلفنى تقديمها إليه . فلما أتيته بها رفضها بتاتا وقال : (خبرنى أن أموت جوعا من أن آخذ مالم أتعب فى كسبه) إلا أن فاقته كانت وقرا على وعلى محبيه فتكلمت مع أولى الأمر وتمكنت من أن يعين قاضى قضاة المسلمين فى العراق . فلما وقف على تنصيبه أبى وقال : (إن هذا المقام يستلزم علماً زاخراً وذمة لا غبار عليها ووقوفاً تاماً على الفقه . وأنا لا أشعر بذلك . ووجدانى يحكم على بأنى غير متصف بالصفات المطلوبة لمن يكون قاضى قضاة المسلمين) .

مراقبة الحكومات فتعلم وترى من تختار من التلاميذ على مشربنا فلا تمضى عشر سنين إلا ويكون عندنا التـــلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار ؛ فقال : أنت مشبط !) . . .

وسمعه رجل قول وعمل بلغ فى كل منهما الذروة : يلى الوظائف الكبرى ويخوض فيها المعارك الضخمة ، ويتعلم الفرنسية . ويفحم بكتاباته أحبار المسيحية وفلاسفتها أمثال هانوتو ويكتب فى الصحف . ويفسر القرآن ، ويصب اللعنة على السياسة الإنجليزية وهو فى العاصمة الإنجليزية . وسمعه الشيخ الكبير لمدارس المصلحين والسياسيين المصريين كافة ، وفى طليعتهم سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ ، وقاسم أمين قائد حركة تعلم المرأة ، والشيوخ والعلماء الأحرار فى الأزهر محمد مصطفى المراغى ومصطفى عبد الرازق وعلى سرور الزنكلونى وعبد المجيد سليم ومحمود شلتوت ، كما رأس ، وهو فى الوقائع الرسمية ، سعد زغلول وإبراهيم الهلباوى [١] ووفا زغلول وعبد الكريم سليمان وتتلمذ فى رياسته رؤساء الوزارات سعد وعدلى ورشدى وثروت ومحمد محمود والزعيمان محمد فريد وطلعت حرب والشيخان المراغى ومصطفى عبد الرازق .

وظل على ما بدأ به حياته فى عهد الطلب متقشفاً زاهداً يقاوم الخرافات والجهالات فى كل موقع شغله أو اطلع على عيوبه أو استعان به أصحابه لإصلاحه .

* * *

ولما كرثت مصر كارثة الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ واجتمع عليها الحكم التركى يمثله الولاة من أبناء محمد على والاستعمارُ البريطانى كتب عن محمد على - وحفيده الخديو عباس حلمى الثانى على عرش مصر يحتفل بمرور مائة عام على تأسيس دولته - فقال : (ماذا صنع محمد على ؟ . . . لم يستطع أن يُحيى ولكن استطاع أن يميت ! . . اشرأبت نفسه لأن يكون ملكاً غير خاضع للسلطان العثمانى . فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب الأوربيين فأوسع لهم فى المجاملة !

. . . وانقلب الوطنى غريباً فى داره غير مطمئن فى قراره . فاجتمع على سكان البلاد ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية ، وذل سامهم الأجنبى إياه ليصل إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة . . .) .

وقال عن محاربة محمد على للدين : (لا يستحى بعض الأحداث من أن يقول : إن (محمد

---

(١) أول النقباء وأشهر المحامين فى العالم العربى - انظر (المحامون وسيادة القانون) للمؤلف طبعة ١٩٧٦ ص ١١ الى ص ١٢٩ .

على) جعل جدران سلطانه بنيةً من الدين[١] . أيّ دين كان دعامة لسلطان محمد على ؟ دين التحصيل ! دين الكرباج ! دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟ وإلا فليقل لنا أحد من الناس : أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامى الجليل ؟ لا يذكرون إلا «مسألة الوهابية» وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين . . .) .

ولا عجب - وهذا رأيه فى محمد على وفى (المسألة الوهابية) - أن يقول فيه أنصار محمد على وأعداء ابن عبد الوهاب : (إن مبنى أصول محمد عبده فى ضلالته على أصول ابن عبد الوهاب)[٢] .

* * *

---

(١) كان فهم محمد على وأسرته للدين مجرد إقرار بالإيمان دون القيام بعمل صالح أو إدراك صحيح لحقائق التوحيد . ومن أمثال ذلك دعوة حفيده إسماعيل علماء الأزهر ليقرءوا صحيح البخارى إبان هزائم جيشه فى حرب بالحبشة لينصر الله الجيش . فكانوا يقرءون فى القصر وكانت الجيوش تنهزم فى الميادين فقال لهم : إما أنكم لا تقرءون وإما أنكم لستم بعلماء ! فأجابه واحد منهم : إن النبى ﷺ يقول : «تأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»

(٢) عبر محمد عبده عن المنهج السلفى بسيرته فى الكفاح وبمؤلفاته أصدق تعبير وواجه الملحدين والدهريين والشككيين . يقول فى كتابه رسالة التوحيد :

إن الله وهب لنا الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بتحض تلك الوجهة فكل شخص كاسب لعمله بعينه . لها أوعليها . وأما ما تتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا . . . فذلك إنما يرد إلى الله وحده . فلا يجوز أن نخشع إلا له ولا نتضرع إلا إليه . . . لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله . . فهو وحده مالك يوم الدين . . اجتثت بذلك جذور الوثنية ومداولها مما لو اختلف فى الصورة والشكل أو العبارة أو اللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة . فتبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة . . . وتخلصت تلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وغيرهم . وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض قاهر الناس أجمعين . . . . سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنها هى : كإرادة الرؤساء والسيطرين ، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما ظن فى القبور والأحجار ، والأشجار والكواكب ونحوها وانفكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومتحلى حق الولاية على العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين أنهم وسيلة النجاة . . .

صار الإنسان بالتوحيد عبدا لله خاصة ، حرا من العبودية لكل ماسواه . . . ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم . . . ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من لعوج والرياء . . . ضالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه .

ويقول فى الاجتهاد والتقليد : (أحيى الإسلام على التقليد . . . وأقتلعت أصوله الراسخة وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته . . . علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام . ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون إلى طريق البحث هادون .

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم آثار آبائهم . . . فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ماكان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان قد استعبده . يقضى فيه بحكمه وحكمه . . . !

بهذا وماسبقه تم للإنسان أمران عظيمان طالما حرم منهما : وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر . وبهما كملت له إنسانيته وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : إن نشأة الذهنية فى أوربا إنما قامت على هذين الأصلين . . . ولم -

أعلن محمد عبده – بعد تقلبه فى الوظائف وأسفاره فى الممالك وكفاحه لإصلاح الجماعة أنه فى طول حياته كان يتأخى « المنهج السلفى » الذى يستعمل العقل ويتسع للاجتهاد ، فقال فى مذكراته التى كتبها فى خواتيم حياته :

(ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف بالرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى واعتباره من موازين العقل البشرى التى وضعها الله . . . وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا الدهر ومن هو فى ناحيتهم .

أما الأمر الآخر فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير . . .

وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى أمرين : كليهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب . . .

وأضاف أن الحكومة العادلة هدفه ، وأن الوسيلة إليها هى بذر بذور التعليم وتربية غراسها فى الأمة . قال :

(**وهناك أمر ثالث** كنت من دعاته والناس جميعاً فى عمى عنه وعن تعقله ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الدهر بالضعف والذل إلا بسبب خلو مجتمعهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على

= يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من ميلاد السيد المسيح ، وقرر هذا الحكم أن هذا الإشعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان . . . !) .

ويقول : (واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف وقفة القائد خذلته الأنصار . . . لكن الله بالغ أمره ، فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم التتار يقودها جنكيز خان ، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين . . . ولم يلبث عقلاؤهم أن اتخذوا الإسلام دينا . جاءوا لشقوتهم فعادوا لسعادتهم . . .)

ويقول فى الصفات : (ويجب أن يقتصر الاعتقاد على ماهو صريح فى الخبر ، ولايجوز الزيادة على ماهو قطعى بظنى ، وشرط صحة الاعتقاد ألا يكون فيه شىء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين . فإن ورد ما يوهم ظاهره . . . . وجب صرفه عن الظاهر : إما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد وإما بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة) .

ثم يقول : (إن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لاتكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة ، بل هى رؤية لاكيف فيها ولاتحديد ، ومثلها لايكون إلابصر يختص الله به أهل الدار الآخرة) .

ويقول فى خوارق العادات وكرامات على يد غير نبى : (وإنما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه يجب عدم الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى ، ولايكون بإنكار هذا مخالفا لشىء من أصول الدين ولامائلا عن سنة صحيحة ولامنحرفا عن الصراط المستقيم ، اللهم إلا أن يكون مما صح فى السنة عن الصحابة . أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها هم الأصفياء ، وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون) .

الحكومة . . . جهرنا بهذا القول والاستبدادُ فى عنفوانه والظلم قائم على صولجانه . . . ! نعم إنى فى كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع ، ولكنى كنت روح الدعوة ولا أبرح أدعو دعوتى فى الدين ، وأطالب بالإصلاح فى اللغة وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبيره ؛ لأنى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غرس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال . . .)

المنهج الإسلامى منهج علمى :

كان كل واحد من المصلحين الذين أسلفنا ذكرهم مع اختلاف مذاهبهم ومواقعهم أبرز مفكر فى جيله ، وكان إجماع طرائقهم على الأخذ بالمذهب السلفى ، ومبادئ دعوة محمد بن عبد الوهاب ، واتباع الأمة لكل منهم فى مكانه وزمانه ، وتحقق بعض الإصلاح الذى دعا إليه كل منهم : إنْ بالأمر بالمعروف وتغيير المنكر كما صنع السيد أحمد ، وإن بالسلاح كما صنع المهدى ، وإنْ بالعلم كما صنع الشوكانى والألوسى ، وإن بجوب الآفاق والتربية كالسنوسيين ، وإن بالتعليم والتربية والمشاركة فى إصلاح مرافق الحياة كمحمد عبده ، كان كل أولئك دلائل على أن « هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله » وهو العودة إلى الأمر الأول .

ولا جرم إن أظهر ما يستوقف النظر من دعواتهم :

١ - أنها تعيد الفكر الإسلامى إلى صفائه من تخليط الحشويين ، وتهدم الأفكار الباطنية والدعاوى الغيبية والعلوم اللدنية والانحرافات التى تصيب الفكر بالشلل والمجتمع بالتخبط والإرادة الفردية بالغيبوبة الكاملة أو الناقصة .

٢ - أنهم جميعاً واجهوا تحديات العصر بمنهج علمى يحارب عدوين للأمة :

الأول : عدوّ لها من نفسها هو انعدام الثقة فى نفسها والاستكانة أمام الطغاة ، والتواكل فى انتظار السماء أن تمطر الذهب والفضة ، أو أن يساقط عليها الأولياء والشفعاء أو الشياطين النعمة أو النقمة أو اللقمة .

والآخر : عدوّ لها من خارجها - تردها جيوشه ، كلما رفعت رأسها ، إلى مجتمع الخرافات والغيبيات ، وتفرض عليها الشحناء والشقاق كهيئة ما فرض هذا العدو نفسه بالسلاح تعاطى الأفيون على شعوب الصين .

ولقد كان عدواً سافراً لكل المصلحين : بجيوشه حيناً ، وبفتكه وسفكه أحياناً ، وبأعوانه السافرين والمتوارين على الدوام .

٣ - أن أقرب سير السلف منهم كانت سيرة ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب وكان ما

الأثر فيهم ، فتقشَّفوا كتقشفهم ، ودعوا الناس صراحة للاقتداء بهم فى منهجهم .

٤ - أنهم مجمعون على إيجاب الاجتهاد وذم التقليد ، والتفكير بحرية ، مبتدئين بالقرآن والسنة ، ومنتهين إليهما . وما هو إلا منهج السلف الصالح ، إذ يأخذ العلم من مصادره ، وينتفع بنعمة العقل الذى ميزنا الله به ، وأمرنا باستعماله . والاعتبار بواقع الكون وعجائبه التى أمكننا الله منها وأظهرنا عليها ، وأمرنا بالنظر فيها بحرية ، واستخلاص الدلالة منها بأمانة تقطع بوجوده سبحانه وتعالى . وعلى هذه القواعد - النزاهة والواقعية والأخذ بما هو محسوس وارتباط المعلول بالعلة - يجرى الاستخلاص فى سائر العلوم .

وهذا هو المنهج العلمى الذى أمر به القرآن وعلمته السنة .

* * *

يقول الشافعى فى « رسالة الأصول » : (وليس لأحد أبداً أن يقول فى شىء حل ولا حرم إلا من جهة العلم . وجهة العلم الخبر فى الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس) ويتكلم عن القياس فيقول : (أهو الاجتهاد أم هما مفترقان ؟ قلت : هما اسمان لمعنى واحد . . .) (. . . والاجتهاد القياس .

(ولا يقيس إلا من جمع الآلة التى له القياس بها ، وهى العلم بالأحكام بكتاب الله ، فرضه وأدبه وناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه وإرشاده . ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله ، فإذا لم يجد سنة فبإجماع المسلمين . فإن لم يكن بإجماع فبالقياس . ولا يكون له أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب ، ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون صحيح العقل ، وحتى يفرق بين المشتبه ، ولا يعجل بالقول دون التثبت ، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه ، لأنه قد ينتبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد فيما اعتقد من الصواب .

وعليه فى ذلك بلوغ جهده ، والإنصاف من نفسه ، حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك ، ولا يكون بما قال أعْنَى منه بما خالفه ، حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك ، إن شاء الله) .

ويستطرد فى بيان أساس طريقة التجربة والتزام الواقعية والموضوعية ونزاهة التقدير والتقرير فيقول :

(. . . ولا يجوز أن يقال لفقيه عدل غير عالم بقيم الرقيق أقم (قوم) هذا العبد ولا هذه الأمة ولا إجارة هذا العامل ، لأنه إذا أقامه على غير مثال بدلالة على قيمته كان متعسفاً . . .) .

ويقول فى « الأم » لينهى عن الوهم والتخيل وليأمر بالتزام الواقع : (وإن زعمتم أن واسعا لكم ترك القياس والقول بما سنح فى أوهامكم وحضر فى أذهانكم واستحسنته مسامعكم حججتم بما

وصفنا من القرآن ثم السنة وما يدل عليه الإجماع) .

ويقول : (. . . فإن عدم واحدا من هذه الخصال لم يحل له أن يقول قياساً . . . كما لا يجوز أن يقال قِسْ لأعمى وصفت له . . . وهو لا يبصر ما قيل له . . . أو يقال سر بلاداً لم يرها قط ولم يأتها قط . . وليس له فيها علم يعرفه . ولا يثبت له فيما قصد سمت يضبطه ، لأنه يسير فيها على غير مثال قويم . وكما لا يجوز لعالم بسوق سلعة من زمان ثم خفيت عنه سنة أن يقال له قوم . . . ، لأن السوق تختلف . . . ولا لرجل أبصر بعض صنف من التجارات وجهل غير صنفه . . . قوّم كذا ، كما لا يقال لبنّاء انظر قيمة الخياطة ولا خياط انظر قيمة البناء . !) .

ويقول فى « الرسالة » عن وجوب الأخذ « بالظاهر » . (العلم من وجوه . منه إحاطة فى الظاهر والباطن ، ومنه حق فى الظاهر . فالإحاطة منه ما كان نص حكم الله أو سنة لرسول الله نقلها العامة عن العامة ، فهذان السبيلان اللذان يشهد بهما فيما أحل الله أنه حلال وفيما حرم أنه حرام . وهذا الذى لا يسع أحد عندنا جهله أو الشك فيه . وعلم الخاصة سنة من خبر الخاصة يعرفها العلماء ولم يتكلفها غيرهم . . . وهى فيهم أو بعضهم بصدق الخاص المخبر عن رسول الله بها . وهذا اللازم لأهل العلم أن يصيروا إليه . . . وهو الحق فى « الظاهر » كما نقتل بشاهدين . وذلك حق فى الظاهر . وقد يكمن فى الشاهدين الغلط . وعلم إجماع وعلم قياس . .) . ويقول : (وأيهم كان فقد فرقوا بين حكم الظاهر والباطن ، وألغوا المأثم عن المجتهد على الظاهر ، وإن أخطأ عندهم ، ولم يلغوه عن العامد) .

وحجة الأخذ بالظاهر من التصرفات والعبارات قوله عليه الصلاة والسلام : «إنكم بشر وإنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من النار) .

ويبنى الشافعى على ذلك : (فمن قضى بتوهم منه على سائله ، أو بشىء يظن أنه خليق به ، أو بغير ما سمع من السائلين – فخلافُ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، لأن الله عز وجل استأثر بعلم الغيب وادّعى هذا علمَه .) .

وفى تفسير العقود وإنزال الأوصاف عليها من الصحة والبطلان يستبعد أى شىء « باطن » . ولا يقبل إلا « الظاهر » .

يقول فى الأم : (يبطل حكم الإزكان (الفراسة لمعرفة كون العقد ذريعة لمحرم) من الذرائع فى البيع وغيرها . ويحكم بصحة العقد . وإذا أراد رجل أن ينكح امرأة ونوى ألا يمسها إلا يوماً أو عشرة وإنما نوى أن يقضى منها وطرا ، وكذلك نوت هى منه ، غير أنهما عقدا النكاح مطلقاً على

غير شرط) . ويقول (لا يفسد عقد أبداً إلا بالعقد نفسه . لا يفسد بشيء تقدمه ولا تأخر ولا بتوهم ولا بأغلب . وكذلك كل شيء لا نفسده إلا بعقده) .

ولئن كانت المعانى هى المقصودة لا المبانى ، وإرادة المعنى آكد من إرادة اللفظ ، إن اعتبار المعانى لا يرتب الأحكام إلا أن يكون المتكلم قاصداً لها مريداً موجباتها .

والآخذون بالظاهر يتقيدون بكل نية «تظهرها» الدلائل من لفظ أو قرينة . فهى عندئذ أمر ظاهر .

* * *

وهذه الأصول من منهج الشافعى تضع نصوص الكتاب والسنة ومعانيها موضعها من الفكر الإسلامى كافة . وتلزم الناس الاجتهاد وسلوك وسائله وهى :

١ – العلم .

٢ – الاجتهاد وفحواه بذل الجهد واحترام الواقع الظاهر وإدارة المعلولات والعلل معاً .

٣ – النزاهة الكاملة فى تقدير وتمحيص العلل وترتيب النتائج .

٤ – عدم الاستناد إلى نظريات مسبقة أو حقائق مفروضة والتزام ما يثبت .

٥ – عدم الخضوع للميل الشخصى أو التفكير الباطنى .

وهذا هو المنهج الذى نقلته أوربة فى فاتحة عصر النهضة بعد القرن الرابع عشر للميلاد ، بعد إذ قاومت الكنيسة المسيحية حرية الفكر وتدْريس العلم الإسلامى قروناً طويلة ، وألزمت العلماء أن تنتهى نتائج أبحاثهم نهاية توافق مقولات الكنيسة ، مهما دلت الدلائل على النقيض . فحوكم الكثيرون وأعدم منهم بعضهم .

تابع الفقهاء المسلمون منهج الشافعى فى أصول الفقه ، وانتقل المنهج ، لأنه قرآنى ، إلى سائر فروع العلم الإسلامى فى الطبيعة والفلك والطب والكيمياء والصيدلة والجغرافيا والتاريخ والجيولوجيا وغيرها .

وجرى العلماء كالفقهاء على المنهج ، وحسبنا الآن بعض أسماء نختارها من كل فروع العلم :

من جابر بن حيان – أول كيمياوى فى التاريخ – فى القرن الثانى للهجرة إلى الرازى الطبيب (٣٤٠ – ٤٢٠) إلى البيرونى المؤرخ (٣٥١ – ٤٣٠) إلى ابن سينا الفيلسوف (٣٧٥ – ٤٢٨) إلى أبى الحسن بن الهيثم (٣٥٤ – ٤٣٠) عالم الطبيعة إلى المسعودى المؤرخ (٣٤٦) إلى القزوينى الجغرافى (٦٠٥ – ٦٨٢) إلى التيفاشى (٦٥١ هـ = ١٢٥٣) الجيولوجى .

ومن هؤلاء انتقل المنهج إلى روجير بيكون (١٢٩٦) الذى نادى بتعليم المنهج الإسلامى ونقل

علوم المسلمين إلى أوربه كما تدفق سيل الترجمة إلى أهل أوربه من جامعاتها الكثيرة وشهدنا فى القرن السابع عشر من الإنجليزى فرانسيس بيكون والفرنسى ديكارت (١٦٥٠) تفاصيل منهج جديد هو المنهج الإسلامى ذاته ، وتبعه العلماء فى أوربا وأمريكا ولا يزالون يتبعونه [١].

وبانتصار الحرية الفكرية على قيود الكنيسة بدأت أوربة نهضتها المعاصرة . وباستعمال منهج التجربة والاستخلاص بلغت الحضارة العلمية والتكنولوجية مبالغها الحالية .

* * *

وبعد : فى العالم الآن حضارتان ماديتان تتجاريان .

الأولى : حضارة ورثها الغرب من وثنية اليونان والرومان ملاكها القوة والسيطرة وإطلاق العنان للإرادة «الفردية» ، لم تحولها المسيحية عن طبيعتها الوثنية ولم تصقل منها إلا الظواهر .

والأخرى : ملحدة لا تعترف بوجود الله . وتحتكر الدولة فيها السلطة والملكية والحرية .

ولقد أفلست الحضارتان لخلوهما من الروح وفزعهما من الغد ، وانتهى بهما السباق إلى غير غاية ، وسيطر عليهما الرعب النووى الذى يميت البشرية تفاريق ، يوماً بعد يوم ، ليدمرهما ، يوم يفرغ المتسابقان ما يختزنان من القنابل الذرية . وهى إذ تنتج وتختزن سوف تستعمل .

وانصرف أصحاب الحضارتين إلى تعاطى وسائل النسيان بالمخدرات تمتلئ بضحاياها المستشفيات الخاصة بالمدمنين فى كبرى العواصم ، وإلى الاستكثار المجنون من لذات الجسد ورفاه البدن وتكاثر السلع ، يعيشون بها أياماً لا يثقون فيها ويخافون غدها .

وكلتا الحضارتين تسترقّ الناس للإنتاج الكبير الذى تدفعه الآلات إلى أيديهم ولا تسعد به نفوسهم ، وكلما ألهاهم التكاثر زادوا قلقا ورهقا !

والحضارتان تبحثان عن قيم اجتماعية جديدة ، وكمثلها العالم الصاعد : فالأرض مفتوحة أمام قيم الإسلام وعقيدته لإصلاح أى مجتمع عصرى بالمنهج الإسلامى ، الذى عبر عن قيمه طاهر ابن الحسين فى وصيته لابنه إذ ولى خراسان . فقال له .

(وليكن كنز خزائنك فى عمارة الإسلام وأهله) .

فالقيم الدينية تحدث القيم الاقتصادية وتطب لأدواء الحضارات جميعاً .

وإنما يضع الحواجز لقمع انتشار الإسلام فى الأرض المفتوحة أمامه ترويج أعدائه لخرافات المرجفين من أبنائه ، ومحاولة أعدائه إخفاء المنهج الإسلامى الذى تحققت به الحضارات ، كى لا يدرك الناس أن فى الإسلام شفاءهم ، وأن منهجه العلمى ومنهجه الاجتماعى يتخطيان بحاراة العصر إلى استباق أسباب التقدم .

---

(١) راجع كتاب المنهج العلمى المعاصر مستنبط من القرآن للمؤلف دار الاتحاد العربى للطباعة سنة ١٩٧٦ ص ٩ - ٥٣ .